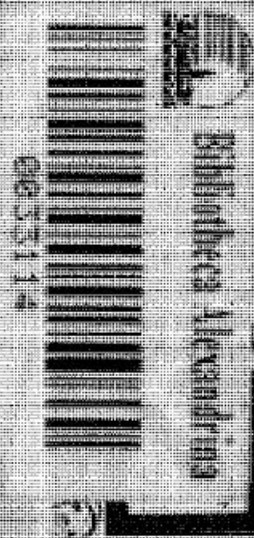


دراسة انتقادية لحكومة



د. لويس عوض



دراسات في الحضارة

دراسات في الحكمة

د. لويس عوض



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف

الفنان : محمد بغدادى

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٨٩

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت / ٦٦٥٩٠٠ ص . ب / ٢٤٨٥
القاهرة . جمهورية مصر العربية



الباب الأول

تأملات في المسألة القومية

الفصل الأول

الأساطير السياسية (١)

كشفت دعوة الأستاذ توفيق الحكيم لنظرية حياد مصر (الأهرام ٣ و ١٢ مارس والأخبار ١٨ مارس ١٩٧٨) وتأييد الدكتور حسين فوزى لهذه الدعوة (الأخبار ٢٣ مارس ١٩٧٨) من جهة، كما كشفت حملة الدكتور وحيد رافت على نظرية حياد مصر (الأخبار ١١ و ٢٥ مارس ١٩٧٨) ، كشف هذا الجدل حول قضية حياد مصر عن ظاهرتين أصيلتين في الفكر السياسى المصرى : الاولى هى اننا ، رغم ما مر بنا من تجارب ، لم نكف عن استخدام اللغة كستار دخان لستر ما نريد ان نتجنب الافصاح عنه بوضوح ، والثانية هى اننا ، رغم كل ما مر بنا من تجارب ، لم نكف عن الاسترسال فى الاساطير السياسية التى الفنا الحياة فيها منذ عشرات السنين .

فنظرية حياد مصر التى يدعو اليها توفيق الحكيم وحسين فوزى قياسا على حال سويسرا تبدو فى ظاهرها تجديدا لتلك الاسطورة السياسية التى أشاعها الحزب الوطنى أيام محمد فريد لتحديد مصر أيام الحرب العالمية الاولى بين الامبراطورية العثمانية والامبراطورية البريطانية ، رغم ما كان فيها من تعارض مع فلسفة الحزب الوطنى نفسه منذ مصطفى كامل القائمة على التمسك بامبراطورية مصر الافريقية ، أى السودان والملحقات بما فيها من « زيلع ومصروع وهرر » — وأوغندا والقرن الافريقى .

(١) « الأهرام » ١٩٧٨/٤/٧

وقد حاول سليمان حافظ ومجموعة من الساسة المصريين تجديد هذه الدعوة الى « الحياد الدائم » على طريقة سويسرا أيام حرب السويس عام ١٩٥٦ مع تنحية جمال عبد الناصر ، لانقاذ مصر من العدوان الثلاثي الذي كاد ان يفترس مصر من جديد لو لا تدخل روسيا وامريكا لانهاثة . ويلاحظ ان هذه الدعوة كانت تتجدد في مصر في فترات اليأس الوطني ثم تنقشع في فترات القوة والامل ولنسمها مؤقتا نظرية « مصر الصغرى » ، القابعة في بيتها المنطوية على نفسها . وهذه احدى الاساطير السياسية المتداولة في الفكر السياسى المصرى .

هذا في الظاهر . أما وراء ستار الدخان في كلام توفيق الحكيم وحسين فوزى فهو بايجاز ووضوح انسحاب مصر من المجموعة العربية وتخليها عن ارتباطاتها مع جاراتها لكى تلتفت لشئونها الخاصة بعد طول ضياع واعادة بناء نفسها بعد طول خراب . وهذا في رأى منطق مشروع رغم عدم موافقتى عليه ، وليس بحاجة الى كل هذا اللف والدوران للتدليل عليه كقول توفيق الحكيم أن مصر الحقيقية هي « متحف العالم » الذى لا يصابن الا بالحياد . أو انها « فندق العالم » محط سياح المشرق والمغرب ، وهو ما يستوجب أن تعيش في حياد دائم . ولم يبق الا أن يقول قائل ان مصر ينبغي أن تكون « كباريه العالم » لتكتمل الصورة اذا رأينا أن نربط هويتنا ومستقبلنا بالشيكات السياحية .

هو منطق مشروع للأسباب التى ساقها توفيق الحكيم في مقاله الثانى لا في مقاله الاول ، وهى أنه ليس على مصر واجبات عربية ما لم تكن لها حقوق عربية . وبما أن مصر بسبب ادائها لواجباتها قد « أضاعت حياتها ومالها وأفلست واشتغلت خادمة بالاجر في بيوت الدول العربية الغنية » نتيجة لاضطلاعها بالعبء الأكبر في الدفاع عن المنطقة العربية ، وبما ان الدول العربية ترفض أو تعجز عن الدخول في الوحدة الاندماجية مع مصر في الاقتصاد والدفاع الوطنى والسياسة الخارجية ، وهو الشرط المستحيل التحقيق الذى اشترطه توفيق الحكيم لعروبة مصر وأضطلاعها بالمسئولية عن المنطقة العربية ، فمن حق مصر اذن أن تلتفت لشئون نفسها ولو أدى الامر أن تدير ظهرها للعالم العربى في سبيل انقاذ نفسها . وما ينطبق على المنطقة العربية ينطبق أيضا على المنطقة الافريقية .

فليكن . ولكن توفيق الحكيم ، ومن ذهب مذهبه ، يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ الا وهى الحقيقة الجيوبوليتية (الجغرافية السياسية) التى تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربية وبالمناطق الافريقية وهى حقيقة الامن القومى المصرى البحت بلا فلسفة ولا ميتافيزيقا ولا مجردات طنانة كتلك التى يطلقها البعثيون ومن ذهب مذهبهم فيطمسوا حقائق الحياة والتاريخ بالشعارات المسكرة . وأنا لست بحاجة الى أن أسمى نفسى عربيا أو أفريقيا لكى أدرك أن أمن مصر نفسها متوقف على أمن المنطقة العربية ولا سيما في شرق البحر المتوسط والبحر الاحمر ، وعلى أمن المنطقة الافريقية ولا سيما في منابع وادى النيل وفي مدخل البحر الاحمر .

ولهذا ، لكى نكون أمناء مع أنفسنا ومع الغير . يجب أن نفصل قضية عروبة مصر عن قضية الكفاح المشترك في العالم العربى وفي أفريقيا السوداء للحفاظ على أمن المنطقتين الذى يتوقف عليه أمن

مصر في داخلهما .

وقد كنا قبل ١٩٥٢ نسمى تضامن شعوب المنطقة للتخلص من الاستعمار ، حتى قبل طرح دعوة القومية العربية ، « الكفاح المشترك » . كنا نتعاضد مع السودان ليتخلص من الاستعمار البريطاني سواء قبل السودان مبدأ وحدة وادي النيل أو رفضه . وكان دمعنا لا يكفكف يا دمشق كلما رأينا للحرية الحمراء بابا بكل يد مضرجة يدق . كل ذلك دون أن نفكر في زيجة فيدرالية أو كونفدرالية أو في قومية ميتافيزيقية اسمها القومية العربية .

وأنا أوافق توفيق الحكيم على قوله : « اذن عندما نقول أن العرب أمة واحدة ، لها قضية واحدة ، فهو قول لا أساس له في الواقع لأن الواقع هو أن لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التي تهمها في المكان الاول . فليس بينها اتحاد مشترك في جيش واحد أو اقتصاد واحد ، بل فيها دول تتمتع بالغنى المفرط ، وأخرى تقاسى من الفقر المدقع ، وبعضها أرضه محتلة وتهمه مؤتمرات السلام ، والبعض أرضه حرة ، وتهمه مؤتمرات الاوبك .. الخ » .

ومع ذلك فأنا أعجز عن الربط بين هذه الحقائق وبين دعوة الحياد المصرى فالحياد كما هو مفهوم للخاص والعام هو انتهاج سياسة تنأى بأى بلد من البلاد عن الارتباط بأحلاف عسكرية مع أية كتلة من الكتل المتصارعة في العالم ولا سيما الكتلتان العظميان ، وهذا ما درجنا على تسميته « عدم الانحياز » ولكن اسمه التقليدى المتعارف عليه من قديم الزمن كان « الحياد » .

فهل توفيق الحكيم وحسين فوزى يتحدثان حقا عن حياد مصر بين الشرق والغرب ؟ أنا لم أفهم ذلك بوضوح من منطوق كلامهما وإنما الذى فهمته والذى فهمه معى أكثر القراء هو حياد مصر بين العرب واستقلال سياستها عن سياستهم فلو جنحوا شرقا كان لنا أن نجنح غربا . وهذا هو المنطق المغلف في دعوة الحياد المصرى . فهل يمكن بأى معنى من المعانى أن نسمى هذا حيادا مصريا ؟ أم أنه نوع آخر من الانحياز في مواجهة الانحياز العربى الآخر ؟

ومع التسليم بأن ما بين الدول العربية من اختلافات أصيلة يجعل من اتحادها مع مصر في جيش واحد واقتصاد واحد مجرد « حلم جميل » بعيد التحقيق أن لم يكن مستحيل التحقيق ، فمتى كان هذا يمنع أن الامن العربى جزء هام من الامن المصرى ، وأن الامن المصرى جزء هام من الامن العربى ؟ وإذا كنا حقا دعاة حياد بين الشرق والغرب ، أو بين الكتلتين النوويتين ، فلماذا يكون الحياد المطلوب حيادا مصريا خاصا ولا يكون حيادا عربيا عاما ؟

ولكن الحياد الدولى ليس الحياد الذى يتحدث عنه توفيق الحكيم حين يقول « لا بد اذن من حياد مصر وعدم تدخلها في قضية شقيق من أشقائها العرب الا بالتوكيل الرسمى » . فهو إنما يتحدث عن حياد مصر بين العرب ولا يتحدث عن حياد مصر بين الدول العظمى .

وهذا أيضا منطق مشروع ولكن له اسما آخر غير « الحياد » فاسمه الحقيقى هو اتباع « سياسة

مصرية خاصة « تحمى الامن المصرى نتيجة :

- (١) لعجز العالم العربى عن اتباع سياسة عربية عامة تحمى الامن العربى .
- (٢) لفشل مصر فى أن تأخذ من العرب بمقدار ما أعطت وما تعطى أثناء قيامها بالتزاماتها نحو الامن العربى والتنمية العربية .
- (٣) لضرورة تصحيح الاخطاء المصرية والعربية فى الماضى والحاضر .
- (٤) وهو أهم ما فى الموضوع . لان محصلة الاسباب الثلاثة السالفة قد تركت مصر مجعدة مستنزفة وعطلت تقدمها بل ساعدت على تأخيرها بما يهدد مستقبلها فهى فى حاجة الى مراجعة حساباتها وأسس العقد الاجتماعى فيها التى أدت الى ما هى فيه من غموض فى الاهداف وبلبله فى الوسائل وانقسام فى الشخصية وفى الارادة .

باختصار ، مصر بحاجة الى فترة نقاهة من نكسه ١٩٦٧ ومن العوامل الخبيثة التى أدت الى نكسة ١٩٦٧ وتلك التى نجمت عنها ، سواء اكانت هذه العوامل مصرية أو عربية أو عالمية فليس يفيد أن نقول أن كل بلاتنا قد جاء من العرب و من الاستعمار الغربى أو من التوسع الروسى ، أو حتى من اسرائيل . وليس من الرشد السياسى أن نبحت دائما عن كبش فداء نعلق عليه أخطاءنا ونقائصنا كلما أردنا تشخيص ما بنا من علل .

وفترة النقاهة هذه ، أو فترة الاصلاح سمها ما شئت من الاسماء ، تحتاج لجيل كامل من الواقعية السياسية فى الداخل والخارج ومن تصفية الاساطير السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى نشرت كل هذا الضباب فى الحياة المصرية وغيرت مدلول الكلمات فغدونا نسمى البيروقراطية اشتراكية وغدونا نسمى حكم الاقوى ديمقراطية لمجرد أن هذا وتلك يقحم فيهما اسم الشعب واسم الجماهير ، وعشنا فى وهم أمجادنا الماضية وتقمصنا روح الاسلاف حين كانت الحضارات غير الحضارات ، فخرحنا باختيارنا من سياق العالم المعاصر ، وفكرنا لهويتنا الوطنية والقومية فاذا بنا فى هويات وهمية بلا سند من واقع أو تاريخ . وتحدثنا عن حطين ومرج دابق وعين جالوت حين كان العدو غير العدو والقضايا غير القضايا ، أكثر مما تحدثنا عن ثورة القاهرة وثورة عراقى وثورة ١٩١٩ ، وعلمنا أبناءنا تاريخ طارق بن زياد وصقر قريش وصلاح الدين أكثر مما علمناهم تاريخ على بك الكبير ومحمد على والحديو اسماعيل وأحمد عراقى ومصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس وغيرهم من المجاهدين فى سبيل الاستقلال والديمقراطية . بل وتنكرنا لثرائنا الديمقراطى العتيد فلم تعد عندنا الامة مصدر السلطات لاننا جرينا وراء سراب المستبد العادل . وهكذا .

وبموجب هذه الواقعية السياسية تدرك مصر أن أمن العالم العربى جزء من أمنها الذاتى ، فهى لا تتخلى عنه من أجل أمنها هى . ولكن بعد أن ثبت لمصر ان الطريق الذى كانت تسير فيه مصر والدول العربية ، دائما الى منتصفه ، وليس الى نهاية الشوط ، لم يزد مصر أو جارئاتها امنا عبر ثلاثين سنة ، بل زادها تعرضا للعدوان وأضعف مناعتها لصد العدوان رغم ما تبذل مصر من دماء وما تنفق

من أموال وما تقدم من تضحيات ، أليس من حق مصر أن تعيد النظر في استراتيجيتها باحثة عن طريق آخر غير هذا الطريق الدائري الذى ينتهى بنا دائما حيث بدانا ولا يحل لمصر أو لخاراتها مشكلات ؟

لقد كانت حروبنا دائما حروبا ناقصة تقف فى منتصف الطريق كما كانت ثوراتنا دائما ثورات ناقصة تقف فى منتصف الطريق ، لأن الحرب الشاملة كالثورة الشاملة لها ثمن فادح لم تستطع مجتمعاتنا المذبذبة بين القديم والجديد وبين التخلف والتقدم ان تتحملة . فكان حالنا دائما حال سيزيف فى الاسطورة اليونانية الذى كتب عليه أن يرفع الصخرة الى أعلى جبل الاولمب ولكنه لا يبلغ بها القمة أبدا لأنها تتدحرج به الى السفح دائما ابدا لبدأ من جديد . وكانت اليونان تقول أن الالهة كتبت على سيزيف هذا العذاب الابدى ، ولكنى أقول أننا كتبناه على أنفسنا لان بعضنا يعرف الطريق الى القوة ويخشى أن يسلكها ، وبعضنا يتوهم طريق الضعف هو طريق القوة ، وفئة ثالثة لا تفكر فى سيزيف ولا فى الصخرة ولا فى القمة ولا فى الالهة ، وانما كل ما يهتمها أن تعيش فى دعة ولو عاش كل من حولها الجحيم

هذه الحروب الناقصة المجهضة هى التى انتهت بنا الى حيث نحن الان . ونحن الان نجرب السلام بدلا من الحرب لعل السلام يعيد بناء ما تحرب من اقتصادنا ومن أخلاقنا ومن حياتنا المدنية ولعل السلام يدفع بعجلة التنمية والتقدم على المستوى المادى والفكرى ، فتعافى مصر من جديد وتخرج أقدر على صيانة أمنها وأمن العرب مما كانت حتى الان ، بلا أوهام ولا أساطير ، ولكن بقدمين ثابتتين على أرض الواقع تقود المجموعة العربية والافريقية الى حضارة القرن الحادى والعشرين . فاذا جاء السلام ناقصا ومجهضا كما جاءت حروبنا ناقصة ومجهضة فالحه وحده يعلم الى أين المصير . وكما أن الحرب لا تطلب لذاتها فكذلك السلام لا يطلب لذاته ، وانما يطلب لتحقيق التقدم المادى والفكرى وللحاق بأرقى الحضارات . فاذا حل السلام ودأبنا على ما نحن فيه فلن تنقذنا حرب ولا سلام .

وليس المقصود بدعوة السلام أن تنسلخ مصر من المجموعة العربية وأن تشبه مصر بسويسرا أو السويد فهذا غير ممكن لو طلبناه لاختلاف التاريخ والجغرافيا والتكوين الثقافى والحضارى ولاختلاف الظروف والمصالح ، وهو ما يمكن أن نجمله تحت عبارة « الحقيقة الجيوبوليتية » فبغض النظر عن الصراعات القومية داخل المنطقة العربية فان التاريخ يحدثنا بأن شرق البحر المتوسط وجنوبه كانا دائما يعتبران منطقة استراتيجية واحدة تسعى الامبراطوريات الغازية المعادية أن تستولى عليها فى مجموعها ما أمكنها ذلك .

فمنذ اجتاحت الحثيون الشام لم يتركوا العراق فى سلام ، ولولا بأس مصر العسكرية لما ارتدوا الى الأناضول حيث جاءوا . وقمبيز لم يقف فى اجتياحه عند العراق بل اجتاحت مصر ، ولولا أن جيشه هلك فى صحراء مصر الغربية لاستولى على ليبيا وما وراءها . والاسكندر الاكبر لم يستول على

مصر وحدها ولكن استولى على الشام والعراق وما وراءه حتى بلغ حدود الهند ، والامبراطورية الرومانية لم تستعمر مصر وحدها بل استعمرت جنوب البحر المتوسط كله وشرقه كله ، وهكذا فعلت الامبراطورية البيزنطية . والعرب فعلوا ما فعله الروم والرومان جميعا . لم يكتفوا بتأسيس دولة في مصر بل طلبوا تأمينها بتأمين الشام حتى حلب . وهكذا حين جاء الصليبيون في العصور الوسطى ليستولوا على مفاتيح الشرق لم يقفوا عند بيت المقدس كما كانت دعاواهم تقول ، بل حاولوا الاستيلاء على مصر وبقية الشام ، رغم أن المنصورة لم يكن فيها قبر مقدس وأنطاكية لم تكن فيها جليئة ولا طريق ألام . والمغول والتتار لم يخربوا بغداد وحدها بل استولوا على دمشق ولولا بأس مصر العسكرية لاستولوا على المنطقة كلها . والامبراطورية العثمانية لم تعف دولة في شرق البحر المتوسط أو جنوبه من الاحتلال العثماني والتبعية لاستانبول . وبونابرت حين غزا مصر غزا بعدها الشام وكان مخططة المعلن لحكومة الادارة أن يسد البحر الاحمر ، طريق الشرق الاقصى ، على الانجليز ، ولولا توازنات القوى في المنطقة وظروف فرنسا الاوربية لافلح فيما أفلح فيه الاسكندر ويوليوس قيصر وقسطنطين وآل عثمان . ومنذ القرن التاسع عشر اقتسمت انجلترا وفرنسا شرق البحر المتوسط وجنوبه بعد أن تبين لهما أن شقاقهما لن يؤدي الى أفراد احدهما بالسيطرة على المنطقة ، وقد توجتا هذه الشركة الآتمة بالوفاق الودي عام ١٩٠٤ واليوم تتكرر المأساة بين الدولتين العظميين أمريكا وروسيا بعد أن ورثتا الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية .

فهل نحن بحاجة بعد كل هذا الى دليل على أن المنطقة العربية ، من الفارسي الى الأطلسي كما يقولون ، منطقة جيوبوليتية واحدة ، أمنها واحد ومصيرها واحد ازاء الغزو الخارجي وازاء النفوذ الخارجي سواء جاء من وسط آسيا أو من شطآن أوروبا أو من قارة الاطلنطيد أو من مروج الاقوام السلافية ؟ وهلى نحن بحاجة بعد كل هذا الى دليل على أن عزلة مصر عن غلافها العربى وعزلة العرب عن وقائهم المصرى أسطورة سياسية ولدها الاحساس بالقهر والاحباط وطلب النجاة بأى ثمن ولو كان الاعتصام فى برج الاوهام السويسرية الذى عاش فيه لبنان زمنا ثم أفاق وهو يقطر دما على أن أمنه بل وكيانه جزء لا يتجزأ من أمن المنطقة وكيانها ؟

ومع ذلك فهذه الاسطورة الانعزالية لا تقل شططا عن اسطورة أخرى هي أسطورة الاندماجية المتمثلة فى دعوة القومية العربية التى تفرض أن شعوب المنطقة أو أقوامها من الخليج الى المحيط « أمة واحدة » ، ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا كذلك . وهذه الاسطورة تركز على خرافة « البعث العربى » واحياء مجد الامبراطورية العربية أيام الفتوحات العربية العظمى . وهذه الاسطورة ، أسطورة العروبة العرقية خارج الجزيرة العربية ، لا تقل شططا وخطرا عن أسطورة الارية العرقية أيام النازى ونظيرها فى الشطط أساطير القومية الفرعونية ، والقومية الفينيقية ، والقومية الاسرائيلية ، وكل دعوة قومية تقوم على بعث العنجهية العنصرية أو العرقية بين شعوب الارض ، وتبنى مجد الأمم على سيادة الجنس وتفوقه الموروث على غيره من الاجناس ، فتبرر الاستعمار والاستعباد والتمييز العنصرى ، وتشغل المواطنين فى أية أمة بماضيتهم عن حاضرتهم

وتدعوهم لحل مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية على حساب الامم الاخرى .. كل هذه اساطير نازية مهما اختلفت اشكالها ولن تجنى الانسانية منها الا الحروب العقيمة . ولا يقل عنها خطرا دعوة نشر المذاهب والعقائد بالقهر أو بقوة السلاح بدلا من الحوار والاحتكام الى مناهج الدعوة السلمية .

اسطورة الدعوة الانعزالية إذن لاتقل شططا عن أسطورة الدعوة الى الوحدة الاندماجية الكبرى القائمة على العروبة العرقية أو العنصرية الملتزمة لكافة ما في المنطقة من قوميات . فالعروبة العرقية لون من ألوان النازية تقوم على احد ثلاثة افتراضات كلها سقيمة :

١ — اما أن الفتح العربى لدول المنطقة من الخليج الى المحيط جاء الى دول خالية من السكان فاقام فيها محلات ومستوطنات عربية الاعراق حيثما مشت جيوش العرب أيام بنى أمية وبنى العباس ، وهو قول هراء لاننا نعلم أن الفتح العربى جاء على اقوام وشعوب غزيرة السكان رغم ضعفها السياسى والعسكرى وخضوعها لروم المشرق ورومان المغرب ، بل أقوام وشعوب أكثر كثافة من العرب الفاتحين انفسهم واقدم حضارة .

٢ — واما تصور أن قطرة واحدة من الدم العربى الفاتح كانت كافية لصبغ دماء المنطقة كلها من الخليج الى المحيط كما تصبغ نقطة من الحبر الاحمر جردلا من الماء الباهت ، وهو قول هراء ايضا لاننا نعرف من قوانين الوراثة ان الدم الوافد هو الذى يذوب فى الدم الاصيل ما لم يتجدد بقوة متساوية فى كل جيل بحيث يغير مكونات « جيناته » ، كما نعرف ان مصر مثلا فيها من الدم اليونانى الذى « شابها » نحو الف عام من ٣٣٣ ق . م الى ٦٤٠ ميلادية أكثر مما فيها من الدم العربى الذى « شرفها » ثلاثة قرون منذ عمرو بن العاص حتى استولى عليها التركمان طولون وأخشيد ومن جاء بعدهما من مماليك يرجية وبحرية الخ .. بل نعرف أن مصر فيها من الدم الطوراني والارى والتركانى والفارسى والكردى والشركسى والقوقازى والتركى اضعاف ما فيها من الدم العربى ، أثار الف عام من الحكم المملوكى التركى ، فضلا عما فيها من الدم الافريقى الزنجى . ومع ذلك فمصر ليست طورانية ولا أرية ولا شركسية ولا قوقازية ولا تركية ولا زنجية ، لان كل هذه الدماء الوافدة كانت تذوب اولا باول فى البحر المصرى الكبير .

٣ — واما ان الثقافة العربية ، وقوامها اللغة والدين ، التى انتشرت منذ الفتح العربى فى ارجاء ما نسمية العالم العربى من الخليج الى المحيط ، قد اختلطت بفكرة سيادة الدم العربى على كل ما عداه من دماء سواء اختلط به أم لم يختلط ، وهو أيضا قول هراء لان فيه خلطا بين العروبة والاسلام ، فالعروبة قومية محددة بسيادة العرب قوما أو جنسا : أو أعراقا فى زمان معين ومكان معين على امبراطورية مهما اتسعت فلها تخوم معينة ، بينما الاسلام رسالة سماوية ارسلت للكافة من بنى الانسان فى كل زمان ومكان ، وهى لا تفاضل بين عربى واعجمى الا بالتقوى وهى لا تقول للصينى المسلم أو الزنجى المسلم أنت عربى لانك مسلم .

وهذا هو الجمود الذى وقعت فيه كل امبراطوريات التاريخ فتشقت داخلها القوميات المقهورة . وهذا هو عين الخطأ الذى يكرره البعثيون أو القوميون العرب فى دعوتهم الحديثة ، وهو استغلالهم لوحدة الثقافة العربية — أيا كان معناها فى أذهانهم — فى دعوة مركزية الدولة العربية ومبدأ الوحدة الاندماجية التى تهدر فيها كل القوميات ما عدا القومية العربية ، وتهدر فيها كل القضايا وكل المصالح وكل المناهج الا ما تراه قضيتها ومصالحها ومنهجها ، فغدت دعوة شقاق أكثر منها دعوة وفاق وفجرت ردود الافعال العنيفة فى كل مكان بدلا من تنمية التآلف وجمع الكلمة بين القوميات فى المنطقة العربية ، واستفزت مفكرا مثل توفيق الحكيم الى أن يعلنها صراحة : « اذن عندما نقول ان العرب أمة واحدة لها قضية واحدة ، فهو قول لا اساس له من الواقع ، لان الواقع هو ان لكل دولة عربية قضيتها ومواقفها التى تهمها فى المكان الاول » ، بل واستفزت مفكرا مثل حسين فوزى الى تصور انسحاب مصر من ارتباطاتها العربية تماما وتحول القاهرة الى جنيف تستضيف التجمعات العربية دون ان تكون طرفا فيها .

وفى عمار هذا الاستفزاز اخطأ هذان المفكران الكبيران لانهما ذهبا من النقيض الى النقيض ، ونسيا انه بالرغم من ان العرب ليسوا أمة واحدة وليسوا قومية واحدة فيها مجرد اقطار واقاليم كما يذهب البعثيون ، بالرغم من تعدد قضاياهم ومصالحهم وفلسفاتهم بل ومكوناتهم الوجودية ، الا أن هناك قضية واحدة تجمعهم غاية ما تكون من الخطورة والخطر ، الا وهى قضية أمنهم القومى فرادى ومجتمعين ، واذا كان موقف دول الرفض من قضية الحرب والسلام وتنديدها باجتهادات مصر فى هذا المضمار قد زاد من فرقة العالم العربى فهذا لا يدعو الى الجنوح فى مواجهة الاخطار الخارجية من اسطورة القومية الواحدة أو الامة الواحدة الى اسطورة اعتزال كل دولة عربية داخل قوميتها والانصراف الى مصالحها المباشرة القريبة المدى .

ولكى نحس بضرورة التضامن العربى من أجل الامن العربى المشترك وأمن كل دولة عربية على حدة ، ليس من اللازم ان يكون بيننا وبين بقية العرب بعضهم أو كلهم « جيت » واحد وميزانية واحدة « بلغة توفيق الحكيم ، أو وحدة اندماجية كوحدة التت ، قامت ثم فشلت مع سوريا ، وليس من اللازم ان يعطينا السعوديون أو الليبيون بتروهم وأن يأخذوا نيلنا ورجالنا ، وليس من اللازم أن نحكمهم من القاهرة كما فعل عبد الناصر مع سوريا أو أن يحكمونا من الرياض أو طرابلس ، وإنما يكفى ان نتعامل بشرف وطنى وقومى وشخصى على ادراك تام بأن كل ما نبذله من أجل الامن هو فى حقيقته من أجل أمن كل منا على حده .

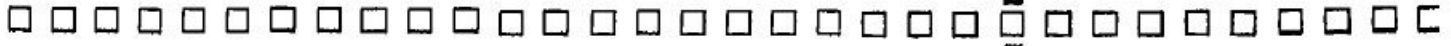
فالحلفاء فى الحرب العالمية الاولى والثانية لم يدعوا الحلفاء وفرنسا وأمريكا فى وحدة فيدرالية كى يضحوا بملايين البشر وببلايين الجنبيات فى قتال المحرر ودحره ، ولم يقيموا حسنا واحدا واقتصادا واحدا مع الاتحاد السوفيتى لكى يحموا امنهم من الخطر الاذى أو الاذى .

فالشكلة اذن ليست « شكلة حياد قانونى دائم كما نجد فى توفيق الحكيم ومن ذهب مذهبه .

واما هى مشكلة تخلص العالم العربى من اساطير الوحدة والاندماج ومن اساطير العزله والاعتكاف ، وحلها هو فى بناء التضامن العربى من أجل الامن العربى والبناء العربى على الواقعية السياسية بدلا من رومانسية « الكل فى واحد » ورومانسية « البرج العاجى » . المشكلة هى عجز العرب عن ادراك مصالحهم الحقيقية وعن الاهتداء الى الطريق أو الطرق التى يحققون بها مصالحهم الحقيقية ، ومن هذه المصالح الحقيقية مصالح شعوبهم ومصالح الشعوب المكافحة معهم لحماية أمن المنطقة العربية . فمن طلاب الحرب من لا يريدون أن يدفعوا ثمن الحرب ومن طلاب السلام من يحسبون ان السلام يمكن أن يأتى بغير ثمن أو من يحسبون أن أى ثمن يمكن ان يدفع من أجل السلام .

وفى تقديرى أنه لا حرب حقيقية بغير رجل الشارع فى كل بلد عربى وبغير سلاح لا ينضب لا نتوقف لنسال من اين جاء ولماذا جاء فمن استخلص حريته بعقله وذراعه لاخوف عليه ان يستعمره الاعدون . وفى تقديرى أنه لا سلام حقيقيا الا سلام القادرين على حماية حيادهم واختيارهم بين ضباغ الارض ، فبسلام الاقوياء المختارين وحده تبنى الاوطان وتجدد فيها الحضارة والحياة . أما رافضة الحرب ورافضة السلام معا فهؤلاء هم العبء الحقيقى على العالم العربى ، بين اقوالهم وافعالهم فراسخ تكفى لاحباط كل أمن وكل بناء .

الفصل الثاني



معاقبات قومية (١)

منذ أن كتبت كلمتي عن «الاساطير السياسية» في افكارنا القومية .. أساطير العزلة وأساطير الوحدة .. جاءتني عدة ردود .. بعضها تعقيبات وبعضها بحوث منها ما يدافع عن فكرة القومية العربية ومنها ما يجادل فيها ومنها ما ينقضها .

ولقد أسعدني بوجه عام ارتفاع مستوى المناقشة العلمية الموضوعية باستثناءات قليلة .. فانا لم اعدم من يهتمنى بأنى اتكلم عن القومية العربية كما يتكلم «المبشرون» الذين يسعون لنسف كياناتنا القومية والدينى .. أو انى اتكلم عن وعى أو غير وعى من موقع أقلية دينية تتوجس من أن يتحد العرب فى كيان قومى واحد من الخليج الى المحيط .

والى هذه القلة — عفر الله لها — أقول ان التفتيش فى ضمائر الناس عن دوافع خفية تدفعهم الى اعتناق المبادئ والتعبير عنها بدلا من التركيز على الحوار العلمى الموضوعى يضعف الحجة ولا يقويها ، وهو خليك بمحاكم التفتيش التى انطوت فيما انطوى من تاريخ الانسانية الحزين .. ولم تبق منها الا آثار من نزالارهاب الستالينى والهنترى والمكارثى ويكفى أن أسجل على هؤلاء انهم تركوا الفاعل الاصلى فى دعوة العزلة المصرية عن العرب وهو ثنائى توفيق الحكيم وحسين فوزى وأمسكوا بتلايب المتوسط المعتدل الذى يرفض الاعتزال والاندماج جميعا .

(١) «الأهرام» ١٩٧٨/٤/٢٠

وقد انتفعت كثيرا من رد الأستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على — استاذ القانون الدولى بجامعة الأزهر فى الاهرام بتاريخ ١٣ / ٤ / ١٩٧٨ لاني وجدت فيه نموذجا للتحليل الموضوعى لقضية القومية العربية ومحاولة جادة لمناقشتها على أساس علمى .

واحب ان أقول ابتداء انه رغم ما يبدو من اختلاف فى بعض اسس التفكير بين الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على وبينى .. الا أن من يتأمل كلامه وكلامى يجد أننا متفقان فى كثير من المقدمات والنتائج .. وليس بيننا خلاف جوهري الا خلاف « سيمانتى » مصدره خلاف على التعريفات أو على معانى الالفاظ ، فانا استخدم مفردات اللغة مثل « القومية » و « العرقية » أو « العنصرية » و « الثقافة » و « الحضارة » و « الوطن » و « الجيوبوليتية » بمعنى ، وهو يستخدم هذه الالفاظ ذاتها بمعنى آخر — أما فيما عدا هذا من مقدمات ونتائج فدائرة الخلاف فيه أضيق ماتكون .

أنا مثلا أوافق تماما على أن اليهود عبر التاريخ الوسيط والحديث لم يجدوا من العنت أو الاضطهاد فى ظل الامبراطورية العربية أو فى ظل العالم العربى الحديث عشر معشار ما وحده من عنت واضطهاد فى أوروبا الوسيطة والحديثة ، بل لقد عرفوا أزمنة أيام الامبراطورية العربية والعالم الاسلامى بعامة كانوا يحتلون فيها مراكز الصدارة فى الدولة العربية وفى الدولة الاسلامية . ولسا بحاجة الى شهادة حاييم وايزمان أو دوحلاس هيوم أو غيرهما من المعاصرين للتدليل على ذلك فأمامنا تاريخ المنطقة منذ أوسيبوس وجوريفوس فى مدرسة الاسكندرية حتى شهادة ابن خلدون نحو ١٤٠٠ ميلادية ، ثم أمامنا تاريخ الدولة العثمانية منذ أن سمح الخليفة السلطان لليهود نحو ١٦٠٠ أن ينشعوا مطبعة عبرية يطبعون عليها « التوراة » رغم أنه كان يحرم انشاء مطبعة عربية أو مطبعة تركية داخل حدود امبراطوريته ، حتى دستور ١٩٢٣ فى مصر الذى كان يسوى فى حقوق المواطنة وواجباتها بين كل رعايا مصر على اختلاف مللهم ومحلمهم كما اثار الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على .

كذلك اوافق الدكتور محمد اسماعيل على على انه لا وجه للمقارنة بين دعوة القومية الآرية العرقية وبين دعوة القومية العربية كما نعرفهما فى التطبيق مهما بدت فى دعوة العروبة اتجاهات عرقية من وجهة نظرى على الاقل . فليس من الضرورى ان تقترن كل دعوة فاشية أو نازية ، رغم عنصريتها ، بغرف الغاز والابادة العنصرية للاقليات العرقية ، كما حدث فى المانيا الهتلرية

فقد عرف العالم الحديث ألوانا من النازية والفاشية والدول الشمولية بوجه عام خلت من غرف الغاز والابادة العنصرية ومع ذلك لم نبرا من مبدأ السيادة العرقية أو السيادة الحضارية أو السيادة الطبقية .. الخ . وكل من درس تاريخ الرنج الثالث يعرف أن غرف الغاز لم تكن فى المانيا النازية لليهود وحدهم بل كان الشيوعيون الالمان « الآريون » فى مقدمة ضحاياها . ومع ذلك لم يثبت فى أذهان الناس الا ابادة اليهود فى المانيا النازية لان اليهود كانوا اعلى الناس صراخا كلما مسهم اذى ، ولان الحلفاء المنتصرين تبنا قضايا اليهود الالمان والبولنديين ووقفوا فى قضايا الشيوعيين

الأوروبيين من أعداء النازي موقف العداء أو موقف الشامتين .

ثم ان الابداء العنصرية لم تكن وقفا على النازية بل شاركت فيها الديمقراطيات بنصيب لا يستهان به ، كما حدث للهنود الحمر على يد الرجل الابيض في أمريكا ، وكما يحدث الان للسود في جنوب افريقيا ، ولل فلسطينيين على يد اسرائيل وعلى أيدي اعوانها في الشرق الاوسط ، كل لاسبابه الخاصة .

فانا عندما قست اسطورة سيادة الجنس العربى على اسطورة سيادة الجنس الارى أو على اسطورة سيادة الجنس « الابيض » ، لم أكن أفكر في أن دعاة البعث العربى يبيتون اقامة غرف الغاز للاقليات العنصرية أو لمعارضهم السياسيين أو الفكرين ، وانما كنت أفكر في وهم اقامة القومية العربية على العروبة العرقية التى تشمل كل قوميات المنطقة من الخليج الى المحيط .

وواضح من كلام الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على انه ينكر انكارا تاما أن دعاة القومية العربية يؤسسون دعوتهم على وحدة الاعراق العربية من الخليج الى المحيط ، فهو يقول :

« ولقد حاولت ان ابحث عن تأصيل عرقى لدعوة القومية العربية التى بزغت فى صورتها الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الان ، فلم أعر على رأى له وزن علمى ، يؤصل فكرة العروبة تأصيلا عرقيا أو جنسيا ، بل على النقيض من ذلك تماما ، اذ يقوم المفهوم الاصيل للقومية العربية على الاشتراك فى الاقليم واللغة والتاريخ المشترك ولم تطرح على الاطلاق مقولة وحدة العرق أو الجنس فى أى مرحلة من مراحل الدعوة الى القومية العربية » .

فاذا كان الامر كذلك فالاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على وأنا على اتفاق عظيم ، ولا أقول على اتفاق تام . فيما يمس جوهر الموضوع وأنا أول من يتمنى أن تصفى دعوة القومية العربية من فكرة الوحدة العرقية .

ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة ، كما يتضح مما يلى :

اذا كان حقا أنه « لم تطرح على الاطلاق مقولة وحدة العرق أو الجنس فى أى مرحلة من مراحل الدعوة الى القومية العربية » ، فكيف اتفق أن مؤسسى هذه الدعوة وهم اصحاب « البعث العربى » يبدأون تاريخ المنطقة من الخليج الى المحيط منذ الفتوحات العربية العظمى وكأنما تاريخ المنطقة كلها لم يبدأ الا منذ بزغ نجم العرب فى السياسة العالمية ، أو كأنما سومر وبابل وأشور فى الطرف الشرق منها وفينيقيا وأرض كنعان ومصر القديمة فى وسطها ومعين وقتبان وسبا وذو ريدان فى جنوبها ونوميديا « ليبيا » وقرطاجنة وموريتانيا فى غربها لم يكن لها تاريخ قبل ذلك التاريخ بألاف السنين . أليس من العرقية هذا التركيز على بداية التاريخ القومى فى المنطقة بانتفاضة العرب التاريخية فى القرن السابع الميلادى وما بعده مع اهدار تاريخ المنطقة وحضاراتها قبل ذلك .

وفي مكتبتى عشرات الكتب الحديثة بعضها عن التاريخ العربى وبعضها عن الادب العربى وبعضها عن اللغة العربية ، وضعها علماء اجلاء تفيض بالنزعة العرقية فى فهم معنى العروبة .

وقد بدأت اتنبه الى هذه الظاهرة منذ ربع قرن حين قرأت كتابا جليلا للدكتور جواد على عن تاريخ العرب القديم واذا نى افاجأ بأن كثيرا من المشقة العلمية التى تكبدها هذا الاستاذ الجليل كانت موجهة الى اثبات ان الحياة الانسانية والحضارات الانسانية قد نشأت فى شبه الجزيرة العربية ومنها انتشرت فى كل مكان فى العالم القديم ، مستخدما فى ذلك نظرية الجفاف الصحراوى المعروفة وما سبقها من تغيرات جيولوجية ومناخية حتى لقد صور ان الانسان الأول نشأ فى جنوب الجزيرة العربية ونقل مكان جنة عدن الاولى الى منطقة عدن عند باب المندب كأنما صحراء الجزيرة العربية هى الصحراء الوحيدة فى العالم التى اصابها الجفاف فى تلك العصور الجيولوجية السحيقة .

وأمامى الآن الجزء الاول من كتاب العالم الجليل الدكتور ناجى معروف الاستاذ بجامعة بغداد ، وهو كتاب « عروبة العلماء المسويين الى البلاد الاعجمية فى المشرق الاسلامى [١٩٧٤] وفيه رصد لاسماء ٣١٣ عالما من علماء التراث الاسلامى عاشوا بين ٦٥٨ و ١٠٤٨ ميلادية ، أى نحو أربعة قرون والقباهم كلها من نوع الرومى والخراسانى والقزوينى والاصفهانى والبخارى والجرجانى والنيسابورى والرازى والهروى والبلخى والطرسوسى والسمرقندى والسجستانى والشيرازى الخ .. الخ .. وقد تقصى المؤلف أنسابهم فوحدتهم عربا من قریش أو تميم أو مضر أو ربيعة أو ثقیف أو شیبان أو عبد شمس أو مخزوم أو الازد أو سى عامر أو الانصار .. الخ .. الخ . كل ذلك ليرد على قول ابن خلدون وسواه ان اغلب حملة العلم فى التراث الاسلامى كانوا من العجم ، وهو مبحث غريب لانه يجرد غير العرب من أى اضافة الى الثقافة الاسلامية من جهة ويفترض أن الجنس العربى يبقى عربيا حتى ولو عاش قرونا فى بلاد الاعاحم ، رغم مرور اجيال من التزاوج والانجاب من أهل الامصار التى انتقل العرب اليها ، مع التسليم بصدق هذه الانساب فى ارومتها الأولى . وعلى كل فالكتاب مهدي « الى كل من شرفه الله بالانتماء الى العرب نسبا أو ولاء أو ثقافة » رغم انهم علمونا ان الاسلام يهى عن التباهى بالانساب لانه من شيم العنجهية الجاهلية العرقية .

فهل قد غاليت كما يذهب الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على حين ذكرت أن دعوة القومية العربية قد اقترنت بزعة سيادة العرق العربى والثقافة العربية على اعراق القوميات الاخرى وثقافتها ؟

من أجل هذا أنا اقول لسيدى الكريم الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على : كلا يا سيدى ، أنا أتكلم عن القومية المصرية بوصفها شيئا مستقلا عن القومية العربية — التى لا أفهمها خارج الجزيرة العربية ، فهذه وحدها عندي هى الامة العربية بأى تعريف علمى ، ولا أتكلم عن الاقليات العنصرية المتناثرة هنا وهناك فى مختلف ارجاء العالم العربى كالاكراد والدروز ممن ذكرهم وممن لم يذكرهم بادراجهم تحت تعريف الاقليات وكل من تفضل الاستاذ الدكتور فحددها وفقا لتعريف اللجنة

الفرعية لحقوق الانسان التابعة للامم المتحدة في دورتها الرابعة في الفترة من ١ الى ١٦ اكتوبر ١٩٥١ بأنها :

« الجماعات التي لها أصل عرقى ثابت وتقاليد دينية ولغوية وصفات تختلف بصفة واضحة عن بقية الشعب الذى تعيش فيه . يجب أن يكون عدد هذه الاقلية كافيا للحفاظ على تقاليدها وصفاتها كما : يجب أن تدين ، بالولاء للدولة التي تتمتع بجنسيتها » .

وأنا لا أدري لماذا انصرف ذهن الاستاذ الدكتور محمد اسماعيل على الى « الاقليات » العرقية والدينية واللغوية وأنا أتحدث عن القومية العربية والقومية المصرية وعن الامة العربية والامة المصرية ، فمن غير المعقول أنه يعد الاربعين مليوناً من المصريين وسط العالم العربى الكبير اقلية عرقية ودينية ولغوية . وفي الوقت نفسه أنا أجل سيدى الكريم عن أن تكون اشارته من طرف خفى الى أنى انتمى الى « الاقلية » القبطية فى مصر أو أنى متأثر بعقلية الاقليات لمجرد انى ارفض مقولة لا أفهمها هي مقولة « القومية العربية » .

وفي جميع الاحوال ، فليسمح لى سيدى الكريم ان اطمئنه الى أن أقباط مصر لا ينطبق عليهم أى ركن من أركان تعريف الاقليات الذى نصت عليه لجنة حقوق الانسان .

أولاً : لان الاقباط ليسوا جماعة لها أصل عرقى ثابت يختلف بصفة واضحة ولا بصفة غامضة عن بقية الشعب المصرى الذى تعيش فيه . فمعروف أن المصريين ، مسلموهم كأقباطهم تنحدر أعراقهم الأساسية عن قدماء المصريين ، فأن كانت فى هؤلاء أو أولئك دماء وافدة فقد ذابت فى البحر المصرى الكبير .

ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن « عنصرى » الامة المصرية ، فالامة المصرية ليس فيها الا عنصر واحد يتجلى فى الاغلبية الساحقة من أبنائها أيا كان دينها . وانما خرافة العنصرين نزلت الينا من زعم الاقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين وأنهم اصحاب مصر الاصليين ، ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة ، فى حين ان الانثروبولوجيا الجنسية لا تميز بين هؤلاء وأولئك لا فى مقاييس الجماجم والانوف والعظام ولا فى نسبة تجلط الدم ولا فى خواص الشعر الخ .. بينما هي تميز فى كل هذه الخصائص السلالية بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غربى آسيا فى الشام والعراق والجزيرة العربية . الجغرافيا الجنسية تعلمنا أن المصريين منذ أقدم العصور فى الأساس سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة بالمتوسطية السمراء الوافدة بحسب كلام فلنדרز بىترى وسواه من الصحراء الكبرى ومن السلالة النيلية ، وهم غير الزوج ، التى نجد بقاياها فى قبائل الشلوك والدنكا والنوير فى اعالي النيل وهم من غير الزوج ، أما غير ذلك فقروع لا أصول . الكثرة المطلقة من المسلمين أقباط اعتنقوا الاسلام قرناً بعد قرن منذ الفتح العربى : وحكاية عمر بن عبد العزيز معروفة ، وهى أنه عندما كفر دخول المصريين دين الاسلام فى أيامه نقصت حصيلة الجزية فاستأذن عامل مصر فى أن يمنعهم من ذلك تأسيساً على أن الاسلام دين عربى أرسل للعرب ، فنهروا

عمر بن عبد العزيز وكتب اليه يقول : « ان الله أرسل محمدا هاديا لا جاييا » ..

وثانيا : لان الاقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغوية وصفات تختلف بصفة واضحة أو غامضة عن بقية الشعب الذى تعيش فيه ، فهى تتكلم عربية مصر العامية وهى تكتب وتقرأ العربية الفصحى والتراث العربى ، وهى قد تخلت عن اللغة القبطية حين تخلى المسلمون عنها لا لشيء الا لأن المصريين من عجيبة واحدة ، ولست اعرف ان للأقباط « صفات » خاصة يختلفون بها عن المسلمين .

وثالثا : لم يبق الا المعتقدات والتقاليد الدينية ، فهذه وحدها يختلف فيها أقباط مصر عن مسلميها ، وحتى فى هذه الحدود فمعروف للخاص والعام أن الكنيسة المصرية كنيسة قومية لا تعرف لها أبا روحيا إلا بابا الاسكندرية ، وانها نشأت قبل أن تنشأ كنائس العالم اجمع بما فى ذلك الفاتيكان أو كنيسة القديس بطرس وانها فى عقائدها متهمة من سائر كنائس العالم بالاسراف فى التوحيد أو ما يسمونه « المونوفيزية » أو الايمان بالطبيعة الواحدة ، ومتهمة بالاسراف فى تقديس مريم الى حد وصفها « بالماريولوجية » ، بل معروف للخاص و العام أنه فى كثير من الشعائر الدينية ولاسيما طقوس الموت والميلاد والاحصاف والسحر والشفاعة ، وبعض الاعياد لا فرق هناك بين قبطى ومسلم فى التقاليد والعادات ، لان اكثرها نزل الى المصريين مع موروثات مصر القديمة . فالاقباط إذن ليسوا أقلية بتعريف لجنة حقوق الانسان كالاكراد فى العراق والارمن فى الدولة العثمانية والدروز فى لبنان الخ .. لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلا عن انسحام التقاليد والثقافة تجعل من الامة المصرية سبيكة واحدة رغم أن أبناء كل ملة فيها لا يتزاجون مع الآخرين الا غرارا ، بحيث لا تميز بين المسلم والقبطى الا بمعونة دلالات عرضية ، ولا حواجز بينهما الا عند المتعصبين فى الدينين .

وما دام الأمر كذلك فالاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على قد جانب الصواب حين نهى بأتى أتحدث عن « الاقليات » فى حديثى عن « القوميات » . فاذا كان رأيه فى الاربعين مليونا من المصريين أنه لم تكتمل لهم بعد ، أو لم تكتمل لهم فى يوم من الأيام ، شروط القومية المصرية ، فهو طبعاً حراً فى اعتقاده ولكنى لا أشاطره هذا الاعتقاد .

وقد لاحظت على الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على أنه قد توخى فى تعريفه لمقومات القومية العربية نفيه البات لاي مفهوم عرقى فيها وتجنبه الاشارة الى أى مفهوم دينى فيها ، ويفهم من هذا أنه يسلم ابتداء بأد أقوام العالم العربى من أعراق متباينة ، وهو صحيح علميا ، ويفهم منه ايضا انه لا يشترط وحدة الدين كعنصر من عناصر القومية ، وهى فكرة راقية اهدت اليها الامم المتمدنة فى صورة الدولة العلمانية التى تتعايش وتخل فيها الأديان و « المواطنة » محل وحدة الدين ووحدة الجنس بعد تجارب مريرة من اضطهاد الاقليات الدينية ، ولكنه غير صحيح تاريخيا لان القومية لم تخل فى أية مرحلة من تاريخها من وحدة الجنس أو العرق بالاصالة أو بالانتماء بالجنس وفى تعريفه يقول : « يقوم المفهوم الاصيل للقومية العربية على اساس الاشتراك فى الاقليم واللغة والتاريخ المشترك » . وهذا قول بحاجة الى تحليل لأنه من جهة تعريف ناقص للقومية ، ومن جهة أخرى تعريف مستقلى

يقوم على الاماني اكثر مما يقوم على الواقع .

فمنذ متى كان هناك اشتراك في « الاقليم » في هذا الوهم أو الحلم الكبير الذي يسمى « الوطن العربي » في ظل الاستعمار الامبراطوري أيام التحامسة والمناحة والرعامسة والاشوريين والرومان وبيزنطة ، أو في ظل الدولة الدينية أيام الخلافة الاموية والخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والخلافة العثمانية . بعبارة أخرى ان المنطقة من الخليج الى المحيط لم تتوحد الا في ظل الاستعمار الامبراطوري من داخلها أو من خارجها أو في ظل الدولة الدينية الجامعة وإذا كان التوحيد بالخلافة غير مطروح في زماننا ، وإذا كان الاستعمار من الخارج مرفوضا رفضا باتا ، لم يبق أمامنا الا الاستعمار الامبراطوري من داخل العالم العربي . وأنا أسمى الاشياء بأسمائها : قوة عظمى من داخل العالم العربي لها قدرة الاجتياح والتوحيد تحقق « وحدة الاقليم » هذه التي يسمونها « الوطن العربي » . بعبارة أخرى تكرار تجربة محمد علي وعبد الناصر .

فهل هذا هو المطلوب ؟ لا بأس ، ما دمنا نصر على الاسترسال في الاحلام باهظة الثمن . ولكن من ذا الذي سيسمح لنا بتكرار هذه التجربة ؟ القوتان النوويتان ؟ أم تانعهما قفة ، أوروبا بشرقيها وغربيها ؟ وهل نحن نعيش في فراغ دولي حتى يجوز لنا ان نجدد هذه الاحلام الكبيرة ؟ ثم اليس يجدر بنا أن نكون أكثر تواضعا في حالتنا الزرية الراهنة ونركز على هدفين أقل شموخا وهما (١) احتواء اسرائيل (٢) بناء أنفسنا ؟

أكاد اقول ان الزميل الكريم الدكتور محمد اسماعيل على متفق معي في هذا التصور المتواضع لواقعنا رغم دفاعه الحار عن « القومية العربية » فهو ينتهي في مقاله الى قوله :

« ولكنني أضيف شيئا هاما وضروريا هو أن التسليم بوجود الامة العربية لا يعنى بالحلم والضرورة وجوب توحيد هذه الامة في شكل دولة واحدة . ذلك ان الدولة ليست هدفا للقومية ، انما هي أداة لتحقيق المصالح الذاتية لهذه الامة حينما تفتقد الوسائل الأخرى لتحقيق هذه المصالح » . بل ويضيف أن من حق كل دولة عربية أن تحافظ على استقلالها السياسي « وأن تباشر أمور الحرب والسلام بنفسها » ، وأن تعقد سلاما مع اسرائيل اذا رأت أن مصلحتها الذاتية في ذلك ، وأن تتصرف في ثرواتها الخاصة ولكن بطريقة لا تضر بشقيقاتها الدول العربية وأن تباشر كل التصرفات التي تسهم في تقدم شعبها ونموه أولا ، لان كل دولة مسئولة أولا عن شعبها ، وثانيا أمام الامة العربية .

فماذا بقي في « القومية العربية » بعد كل هذه التحفظات بالتخفيف من فكرة الدولة الواحدة والجيش الواحد والاقتصاد الواحد والسياسية الخارجية الواحدة ، ومن فكرة الوطن الواحد اجمالا ؟ هي مجرد حلم جميل من احلام اليقظة ، نعرف جميعا انه من احلام اليقظة ، ومع ذلك لا نريد أن نتخلي عنه ، رغم ان بائع الاحلام قد رحل عنا ، ورغم أن سوق الاحلام قد رفعت منذ ١٩٦٧ ؟ ولم كل هذا الاحتجاج لاني وصفت حلم اليقظة هذا بأنه اسطورة سياسية رغم أن الاسطورة أرق

درجة من حلم اليقظة الذى نعرف انه حلم يقظة ، فالأسطورة على الاقل وهم لا يعرف صاحبه انه يتوهمه أما حلم اليقظة فهو وهم يعرف صاحبه أنه يتوهمه .

ثم هل أنا أغالى لو قلت ان الاستاذ الكريم الدكتور محمد اسماعيل على ، رغم رفضى لفكرة « القومية العربية » ورغم تسليمه بصحتها ، اكثر انغزالية منى وأكثر انسحابا من المجموعة العربية وأقرب منى الى موقف الكتاتين الكبيرين توفيق الحكيم وحسين فوزى بعد كل هذه التخففات الجامعة المانعة من كل التزاماتنا نحو العرب بما فى ذلك التزام الامن القومى الذى أثرت ان أتقيد به لصالح مصر ولصالح العرب جميعا ، للأسباب الجيوبوليتية التى ذكرتها فى مقالى وليس بوحى من فكرة القومية العربية ؟

على كل حال أجدنى والزميل الكريم الدكتور محمد اسماعيل على متفقين تماما على الاقل حين أقرأ عبارته : « أما مسألة الوحدة العربية فلا ينبغي أن تكون هدفا يعمينا عن واقعنا المهلهل تكنولوجيا واقتصاديا ، لان الوحدة بين الضعفاء ضعف فوق ضعف فوق ضعف أما وحدة الاقوياء فهى قوة ؟ » هنا أحس أننا نتحرك معا على أرض الواقع المصرى وعلى أرض الواقع العربى الذى أحب أن أضيف — بعد اذنه — أنه مهلهل أيضا حضاريا وثقافيا واجتماعيا واخلاقيا بما يضاعف من مسئولية الطليعة المثقفة على رأس كل طبقات الامة أن تبحث عن صيغة جديدة للعقد الاجتماعى الذى يربط المواطن بالمواطن ويربط الحاكم بالمحكوم . وها نعرف أننا نتفق أو نختلف لا على رنين الالفاظ ولكن على المعانى التى يقوم عليها نسيج الحياة .

الفصل الثالث

معنى القومية (١) (١)

لكثرة ما كتب في الايام الاخيرة حول موضوع « حياد مصر » وموضوع « القومية العربية » أخذت المناقشة العقلانية الهادئة التي بدأها الاستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزى وحاول الدكتور وحيد رافت والدكتور محمد اسماعيل على « الاهرام » عدد ١ / ٥ / ١٩٧٨ [١٠٧٨] والاستاذ رجاء النقاش [« المصور » عدد ٢١ / ٤ / ١٩٧٨] . وقلمى المتواضع ، أن يجتهدوا فيها وأن يؤصلوها على أساس علمى موضوعى ، أخذت هذه المناقشة تنجرف في اتجاه العاطفة والحساسيات السياسية والاستصراخ والاستنفار . وبدأت القضايا الاساسية المطروحة للبحث تختلط وتتوارى ملامحها وتستوعب قضايا ملتهبة كقضية الناصرية التي أثارها الدكتور يوسف ادريس في « اهرام » ٢٢ / ٤ / ١٩٧٨ ، أو قضية الفيصلية التي طرحها الدكتور ميلاد حنا في « الجمهورية » ، عدد ٢٤ / ٤ / ١٩٧٨ ، أو قضية تسلية الجماهير وصرفها عن واجباتها الوطنية التي اثارها الدكتور عبد العظيم رمضان في « الجمهورية » عدد ٢١ / ٤ / ١٩٧٨ ثم أخيرا قضية « الشعور » وقضية الالف وخمسة سنة ، عند الاستاذ أحمد بهاء الدين [« الاهرام » ٧ / ٥ / ١٩٧٨]

(١) « الأهرام » ١١/٥/١٩٧٨ .

وبهذا تنتقل بسرعة شديدة من مستوى الفكر السياسى الذى يتقنه بعضنا الى مستوى السياسة العملية التى يتقنها بعضنا الاخر قبل ان نتفق على معانى الالفاظ التى نتداولها ، فتتقطع الخطوط والاسلاك بين المرسلين والمستقبلين ويستمر اللاتفاهم بيننا ويستحيل التوصل الى حد ادنى من الارضية المشتركة . ولو أننا استخدمنا العقل الهادى بدلا من الانفعال الملهب ، واعتبرنا أننا جميعا باحثون عن الحقيقة ولسنا اطرافا فى خصومة فكرية أو سياسية ، فرجما اكتشفنا أن الهوة بيننا أضيق مما يبدو الان . وأنا شخصا لست داعية تطابق فى الافكار أو فى المنظور ، ولكنى اطالب أولا بأن يفهم كل منا صاحبه على أقل تقدير .

من أجل هذا اجد ان من واجبي أن أجرب مرة ثانية ، وابدأ منذ البداية . ولتكن البداية هى تعريف « القومية » .

« القومية » كلمة عربية مستحدثة لم يعرفها العرب الاوائل ولم تستجد فى اللغة العربية قبل القرن التاسع عشر كترجمة لكلمة Nationalism . وقد عرفت العربية الفصحى تعبيرين أقرب ما يكون الى معنى « القومية » بالمدلول الحديث ، هما كلمة « الشعوبية » التى شاعت فى العصر العباسى للدلالة على ثورة « القوميات » على الخلافة « العربية » باعتبار أن وحدة الدين الاسلامى لا تبرر سيادة الجنس العربى واستثثاره بالحكم المركزى ، وكلمة أو اصطلاح « العصبية » أو « العصبية الجامعة لكل العصابات » الذى نجده فى « مقدمة » ابن خلدون كأساس لوحدة المجتمع على أساس العرق أو الجنس بدلا عن الجامعة الدينية كأساس لوحدة المجتمع .

« والعصبية » من « العصب » طبعاً وبذلك يتضمن معناها بالضرورة معنى وحدة العرق أو الاعراق ، أو وحدة الجنس كما نقول الان فى لغتنا السلسلة فهى اساس « الجنسية » . أما كلمة « قوم » التى اشتقت منها كلمة « القومية » الحديثة فهى كلمة عامة كانت تعنى أيام العرب الاوائل « الناس » كما فى قولهم « يا قوم » ، وقد تعنى جماعة أو مجتمعا مترابطا بالدم أو بغيره كما فى « قوم لوط » وحجمها غير واضح ان كان « العشيرة » أو « القبيلة » أو « الأمة » أو كل هذه الاشياء . ومع ذلك فهى تفى بالغرض الذى تفى به كلمة « العصبية » بل وتفضلها فى التعبير عن الكيان الاجتماعى لخلوها من العنجهية .

وكلمة nationalism الاوربية بمعنى « القومية » المحدد كلمة حديثة أيضا استخدمت لأول مرة عام ١٧٩٨ كما يقول العلامة اللغوى السويسرى فالترفون فارتبورج فى قاموسه الاشتقاقى فى اللغة الفرنسية [أنظر ايضا « قاموس روبر »] . ومع ذلك فكلمة nation فى اللغات الاوربية الحديثة التى نترجمها عادة بكلمة « أمة » اقدم من ذلك بكثير ، اذ نجدها فى فرنسية القرنين الثانى عشر والثالث عشر [عام ١٢٧٠] بمعنى « ميلاد » وبمعنى « سلالة » أو جنس race .. والكلمة لاتينية الاصل من كلمة « ناتيو » natio [وجمعها nationes] اللاتسة بمعنى « ميلاد » وصيغة منها ناسكو أو « ناسيو » Nascio ، وفعلها « ناسكور » nascor بمعنى « يولد » « ناتيو »

مستخدمة بدرجة منذ شيشرون على الأقل في القرن الأول ق . م . بمعنى « سلالة » أو « جنس » ، وأحيانا بمعنى « قبيلة » وأحيانا « عشيرة » أو « أسرة » ، وكان شيشرون وغيره يستعملونها بمعنى يتضمن الزراية عندما يتكلمون عن القبائل البعيدة المتبريرة . ومن هنا فهي تعني « قوم » بالمعنى البدائي . [قارن « اثنوس » اليونانية] . على كل حال فاقتراها بكلمة « ناسيو » بمعنى « المولد » يؤكد معناها العرق .

ومن هذا نجد أن كلمة nation بمعنى « أمة » ، وكلمة nationalism بمعنى « قومية » ، في اللغات الأوروبية قديمها وحديثها ، تتضمن دائما معنى وحدة العرق أو السلالة أو الجنس ، مهما كان مختلطا ، ولا سبيل الا استبعاد فكرة العرقية أو العنصرية أو الانتماء الى جنس واحد بسيط أو منصهر من مفهوم هذين اللفظين ومن مفهوم مرادفهما في العربية الحديثة .. وقد كان من عربوا كلمة nationality بكلمة « الجنسية » على صواب في هذا التعريب وعلى دراية باصل الكلمة وتاريخها ودلالاتها .

فمعنى وحدة العرق أو العنصر أو الاصل اذن معنى ملازم لفكرة « القومية » لفكرة « الأمة » . واذا نحن قلنا أن وحدة العرق هي احدى مقومات « القومية العربية » فليس في هذا الكلام مدعاة للغضب أو للانزعاج ، لان وحدة الاصل هذه هي احدى مقومات كل قومية في تاريخ الانسانية ، بل لعلها المقوم الاساسي في فكرة القومية لان الانتماء الى مجموعة بشرية واحدة تربطها علاقة الدم بالمعنى الواسع طبعاً هو الذي يحدد تماسك هذه المجموعة في مجتمع واحد ويحدد تحركاتها الجماعية في بلاد الارض أو ثباتها على رقعة معينة من الارض هي التي تعرف بالوطن . وهو الذي يفسر ويعطى معنى لاشتراك أبناء هذه المجموعة المتناسكة كرجل واحد في اعمال السلم والحرب وفي جهود الحضارة والبناء واشتراكهم في المصير وكل ما نسميه « وحدة التاريخ » . وهو الذي يفسر ويعطى معنى لاشتراك ابناء هذه المجموعة في اللغة والدين والثقافة بوجه عام .

فالقول اذن بأن القومية العربية أو القومية المصرية أو أية قومية في التاريخ ليست مؤسسة على وحدة العرق تخوف في غير موضعه ، لان ما تدينه الانسانية والاديان ليس الانتماء الى جنس معين ولكن نعمة الشعور بأن هذا الجنس أرقى أو اشرف بالوراثة من غيره من الاجناس ، أو أنه جنس الله المختار كما يقول اليهود عن انفسهم . والخلو من الشعور بالانتماء الى أى جنس أو عنصر أو سلالة ، أى جماعة بشرية مترابطة فيه درجة من درجات الضياع شبيهة باحساس اللقطاء أو الايتام أو من لا أسرة لهم ولا أهل ولا أقرباء .

والشعور بالقومية اقدم من الشعور بالوطن ، لان الاقوام عاشت في عصور الصيد ثم الرعى متنقلة بغير وطن محدد ، وهي لم تعرف الوطن الا بالاستقرار بعد اكتشاف الزراعة . ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان نتحدث عن القومية الا مقترنة بظهور درجة كافية من التنظيم الاجتماعي والسياسي داخل المجموعات البشرية يجعل كلاً منها متماسكاً ومدركا لضرورة تماسكه ولاساب هذا

التماسك ، ولاختلافه عن المجموعات البشرية الأخرى . فالقومية أقدم نشأة من الوطنية والوطنية أكثر رقياً من القومية لأن المدنية لا تظهر حقا إلا ببداية حياة الاستقرار بين الشعوب وبداية تكوين « الامم » بالمعنى الراقى .

ومع ذلك فقد عرف التاريخ قوميات بلا أوطان في عصور الهجرات الكبرى فيما قبل التاريخ وعبر التاريخ القديم والوسيط كتحرركات الهكسوس والحيتيين والاغريق والرومان الأولى ثم كتحرركات القوط والفندال والهون والاقوام السلافية وكتحرركات التتر والمغول وكان آخر نموذج للقوميات التي تعيش بلا وطن ثابت يهود العالم بعد « الدياسبورا » أو التشتت . أو فلنقل أنها كانت قوميات تبحث عن أوطان لأن أوطانها الأولى جف ضرعها وأصحت غير ملائمة للحياة ، فالرابط بين الانسان والانسان لم يكن عندئذ وحدة الوطن ، ولكن وحدة الدم .. وهذا هو السبب في ان كل قومية من هذه القوميات القديمة كانت تفترض انها تنحدر من جد واحد اعلى مثل جيراكوس أبو الاغريق أو هيلين أبو الهيلينيين أو رومولوس أبو الرومان أو يعرب بن قحطان أو عدنان الخ ... وبعضهم جعل نسبه في السماء ، وفي كثير من الاحوال كان هذا الجد الاعلى أو مؤسس القوم eponym شخصا اسطوريا .

وقد كانت اديان التوحيد خطوة الى الامام في طريق الانسانية لانها أبرزت وحدة الجنس البشرى بنسبته الى آدم وحواء لتحل مشكلة القوميات المتناحرة .. وكان هذا جوهر محنة اخناتون . وكل قومية تبحث دائما أبدا عن وطن تستقر فيه ومنه تبدأ حياتها المدنية بالمعنى المتعارف عليه ، والا هلك وتندثرت وكان مصيرها مصير مجتمعات النمل والنحل لا تعرف لنفسها رابطا اجتماعيا الا وحدة العنصر ، التي قد تكون لازمة للبقاء على المستوى البيولوجي ولكنها غير كافية على المستوى الحضارى . ومن هنا كانت القومية في صورها الأولى اقرب الى الفطرة وأكثر سداجة وعدوانية من الوطنية ، لان الحضارة بأى معنى حقيقى لم تبدأ الا باستقرار القوميات في أوطان ثابتة .

وكثيرا ما كان يحدث ان الاقوام الغازية حين تستقر في الاوطان المفتوحة تنسب الوطن الى القوم لا القوم الى الوطن ، فالانجلو سكسون حين فتحوا بريطانيا — بلاد البريتون بين ٥٠٠ و ٦٠٠ ميلادية سموها « انجلاند » أى ارض الانجليز [انجلترا] ، وبقيت كلمة « بريطانيا » فقط كتعبير سياسى شامل لاسترضاء السكان الاصليين . وكذلك الفرنجة أعطوا اسمهم لفرنسا بعد أن كان اسمها « جاليا » ، وقبائل « الاليماني » أعطوا اسمهم لمانيا أو جيرمانيا ، وهكذا .

ولم ينجح غاز في أن يغير اسم « ايجيبت » [هت كا بتاح أى « قصر روح الاله بتاح »] ، ولم ينجح غاز في أن يغير اسمها الاخر « مصر » [« بير اوسير » أى بيت الاله أوزيريس] ، وقد بقيت منه آثار في اسم « بوسير » أو « ابو صير » [التى كان اليونان يسمونها « بوزيريس » .. لم ينجح في تغيير اسم مصر الا ابن من ابناءها حاسبا أنه يستطيع بذلك ان يصبح امبراطور العرب ،

ولكنه خرج من ذلك صفر اليدين .

فالقومية الراقية اذن لم تبدأ الا حين اقترنت بالوطنية ، بل لم تبدأ الا حين ظهرت الدولة المركزية وحل فيها حكم القانون والمؤسسات محل ارادة الحاكم والعرف والتقاليد ، وتحول فيها القوم من مجرد قطيع يرعاه راع ويهشهم بعصاه ، الى « رعية » ، الى « أمة » فيها « مواطنون » لا رعايا . ولهذا كان من تعريفات « الامة » أنها شخصية قانونية مكونة من مجتمع يسوده دستور واحد وقوانين واحدة وسيادة لا تتجزأ على أرضه ومواطنيه . فالمصريون مثلاً لم يكونوا امة أيام حضارة نقادة أو البداري أو دير تاسا أو مرمدة بنى سلامة في عصر ما قبل الاسرات . بل لم يكونوا أمة قبل ان يوحد مينا أو عرمرمر الوجهين ويقم في مصر الدولة الواحدة ، بل كانت شعبي ودولتين ومن قبل ذلك كانت شعوبا ودويلات .. وبالمثل فالعرب لم يصبحوا أمة قبل ان يوحدهم النبي بل كانوا قبائل متفرقة . والفرق كان باختصار ظهور الدولة الواحدة والوطن الواحد .

وبهذا المعنى نحن لا نستطيع ان نتكلم اليوم عن « الامة العربية » وعن « الوطن العربي » الا بعد زوال الحدود السياسية داخل العالم العربي وقيام الدولة المركزية الواحدة التي يحكمها دستور واحد وقوانين واحدة وتكون صاحبة سيادة لا تتجزأ على كل أراضيها وكل مواطنيها . وهذا لا وجود له في الحاضر ، وهو على أحسن الفروض مرهون بالمستقبل لو توافرت شروط تحقيقه . أما قبل ذلك فهو مجرد أمل عند البعض ومن غير المعقول أن يستمر في التعامل مع الاحلام أو الاماني تعاملنا مع حقائق الواقع . وقد كان عبد الناصر نفسه أول من ادرك هذا الخطأ بعد انفصال سوريا وعبر عنه في الميثاق بشعار « حرية ، اشتراكية ، وحدة » ، أي انه أرجأ فكرة الوحدة الى ما بعد تحرير كل دولة في العالم العربي ، الى ما بعد سيادة نظام واحد فيها جميعا ، ثم بعد ذلك تكون الوحدة . أي انه أرجأ الوحدة الى أحل غير مسمى لادراكه أن مقوماتها غير متوفرة أو لن تتوفر الا في المستقبل البعيد ، ربما بعد مئات من السنين .

فأول مظهر من مظاهر القومية العربية ظهور الدولة المركزية الموحدة صاحبة الولاية التي لا رجعة فيها على بلاد العالم العربي ، على الأقل في الدستور والقوانين الاساسية ونظام الحكم والاقتصاد والجيش والسياسة الخارجية . قبل هذا لا مجال للكلام بأي معنى علمي وبأي معنى رسمي عن الامة العربية وعن الوطن العربي . ومع ذلك فنحن نتحدث عنهما كأنهما حقيقة واقعة ونعلمهما للتلاميذ في المدارس ونشير اليهما في اجهزة الاعلام وفي البيانات الرسمية وفي الخطب السياسية وفي الابحاث الجامعية وفي المؤلفات الادبية وفي المراسلات الدبلوماسية ، نتكلم وكأن هناك قومية عربية فعلا وكان هناك أمة عربية فعلا وكان هناك وطنا عربيا فعلا ناسين ان للقومية معنى محددا وأن للامة معنى محددا وللوطن معنى محددا ، وهكذا نخلط الاماني بالواقع ونكذب على انفسنا وعلى الغير ، لان كل دولة من الدول العربية تتصرف في نهاية الامر تصرف الدولة القومية داخل نطاق سيادتها على اراضيها وعلى مواطنيها ، ولم نر بعد دولة عربية نزلت عن شر من هذه السيادة لغيرها من الدول العربية رغم